امرأته . وعذب أولاده وخدع جيرانه وسرق ما استطاع ومات فقيراً) .

أتم الميت تسطيرها وظل يتأمل فيها ، وغادرت مكاني فاذا القبور جميعها متفتحة ، وسكانها جميعا بعثوا من مراقدهم ، ومحوا الصفات الكاذبة التي سطرها أهلوهم على لوحات قبورهم ، ونقشوا مكانها حقائقهم المجردة ، فوجدت أن جميع هؤلاء الآباء الصالحين والزوجات الأمينات، والابناء الطاهرين، والغواني العفيفات، وهؤلاء التجار المستقيمين، منهم العاق والبغيض، واللئيم والمرائي ، والكاذب والحاسد والنمام ، ومنهم السارق والخادع ، والمرتكب كثيرا من الآثام . رأيتهم جميعا منكبين على منازلهم يسطرون حقيقه أنفسهم التي يجهلها أو يكاد يجهلها أبناء الحياة .

شعرت — اذ ذاك — بأن محبوبتي خطبها خطبهم ، فعجلت اليها نافضا عني الخوف ؛ ومن حولي القبور المفتوحة . والجثث المنشورة والهياكل المنتصبة . عرفتها إذ لمحتها ، ولم أتوسم وجهها المتصبب عرقا . وعرفت القبر الذي كانت هذه الجملة مسطورة عليه (انها أحبت . وكانت محبوبة ثم ماتت) .

تلوت هذه الجملة الثانية (خرجت يوما لتخون حبيبها فأصابها برد أودى بحياتها)

* * *

ويبدو لي انهم عثروا بي راقدا عند شروق الشمس على أحد القبور .

خليل هنداوي

الملاح التائه

ديوان الشاعر علي محمود طه

يصدر

في اول مايو

في المزرعة

بقلم ايفان بونين

كان ذلك الوهج الوردي الفاتر المنبعث من الغروب الذاوي يغادر السماء متلكئا متباطئا . وتوارى الضوء شيئا فشيئا بين جحافل الظلام التي أخذت تخيم فوق مزارع الغلال الفسيحة المترامية . ثم أمعنت تلك الجحافل في الزحف حتى على القرية .. بعد ان ارسلت بعض النوافذ الصغيرة في جدر الاكواخ وميضا نحاسيا خابيا يستبي اللب . كان المساء هادئا ساكنا . قد حشدت قبل قليل قطعان الماشية في حظائرها ، واحكمت دونها الرتج والاغلاق . وآب أهل القرية من عملهم المضني فتناول كل عشاءه على الحصباء قبالة أكواخهم ثم غرقوا في صمت ساهم عميق . لاصوت لغناء ولا صرخة لطفل كل شيء كان يحلم حلمه المسائي . وكان الكابتن ايفانيش وقد جلس الى نافذته المفتوحة يحلم أيضا .

كانت «عزبته» فوق رابية آجام واطئة من الاقاقيا والليلاك تحتها انجم كثيفة ملتفة مشتبكة من القراص والحماض تنحدر الى أسفل في اتجاه الوادي . ومن النوافذ تستطيع العين ان تقطع مسافات شاسعة فوق تلك الايك والاحراج البالغة مكانا قصيا .

كانت الحقول ساكتة صامتة تحت ذلك الغسق الشاحب ، قد انقطعت فيها الحركة . والهواء جافا دافئا عليلا . والنجوم في السماء ترتجف باستحياء وفي غموض مبهم كأنما تخفي في باطنها اسرارا لا تدرك وأحاجي لا تحل .

ليس هناك تحت النافذة الا بضع جنادب دائبة في صريرها المتشابه من غير كلل ولا ملل ، وهي في مكامنها تحت عساليج القراص والا صيحات السماني المتزنة الآتية من السهل النائي البعيد .

كان الكابتن ايفانيش وحده ، كدأبه دائما . لقد كتب له ان يعيش وحيدا يقاسي آلام الوحدة ما بقي حيا .

كان ابواه لا يملكان شيئا ، يعيشان في بيت الامير (بوكابسكي) ماتا إبان طفولته ولما يبلغ من العمر سنة واحدة . قضى أيام طفولته وفتوته في بيت عمة له مخبولة وفي مدرسة ابناء الجنود . كان في شبابه ينظم الاغاني ناسجا فيها نسج ديلفك و كولتسوف . نظم قصائده

الغرامية الكثير عن (هى) المعهودة .

وما كانت (هى) المعهودة الا (آنا) ابنة موظف فى مكتب (تسجيل العقود) فى القرية ، لكنها ما كانت تحبه كما يحبها

كان أهل القرية يقولون عنه انه يشبه (السيد) ولكن ليس فيه شيء يسترعى النظر .

هو نحيف طويل بعض الشيء . قد صار يوما بتأثير الامير ملازما فى الجيش ثم ورث عن عمته نقوداً واستقال من وظيفته

أما (هى) فقد ذهبت يوما لتقيم فى بيت صديق لها وتزوجت وأقفل هو مكتبه على قصائده الغرامية حيث ظلت وستظل الى يوم موته .

انشأ يشتغل بالزراعة وحاول العمل فى مكتب الحكومة فى القرية ولكن لم يسعفه الجد

ومرت الأيام وانقضت الشهور وتعاقبت السنون ، وأصبح فلاحا حقيقيا : سترة طويلة تصل الى ركبتيه وشاربان طويلان أسودان ، على أنه ما كان يعلم أن وجهه المتضمر المتغضن بعض الشيء وما كان يعلوه من امارات الحنو كان جميلا جذابا .

إنه اليوم حزين مكلوم . وجاءت اليـــه فى الصباح خادمه (اكرافية) التقية الورعة وذكرت له بين ماحدثته به (أتذكر السيدة « آنا » ياسيدى ؟

ـــ فأجابها الكابتن إيفانيش . نعم

فقالت له ماتت ودفنت فى خلال أيام الصوم .

وبعد هذا لبث الكابتن إيفانيش طول يومه مرتسمة على شفتيه ابتسامة مضطربة غامضة . وفى المساء ، وما أهدأ ذلك المساء وما أشده سكونا ، وما أعمقه كآبة ـــ لم يتناول عشاءه ولم يذهب الى فراشه مبكراً كعادته . بل تناول فى يديه لفافة غليظة من تبغ أسود قوى وظل جالسا الى نافذته واضعا ساقيه الواحدة على الاخرى .

أراد أن يخرج من البيت ويذهب الى مكان ما ، ولكنه سأل نفسه : الى أين ؟ ! . أيذهب لصيد السمان ؟ ولكن لم يبق وقت لذلك . ثم ليس هناك من يرافقه . أيذهب ؟ ام لا . . . لم يرق له صيد السمان . تهد وخبط يده ذقنه غير الحليق .

ثم قال فى نفسه « إن حياة الانسان لقصيرة ضئيلة » .

أترى الحقبة طويلة من يوم كان فتى فى ميعة الشباب حتى الآن مدرسة ابناء الجنود ـــ حسنا انها ولت . . . الى حيث لارجعة . . . قر وسغب ولغب ـــ أسفار الى عمته ، ما أغربها من عمة . ما أشد شذوذها وغرابة أطوارها . هو يتذكرها جيداً ، حتى لكأنها الآن ماثلة أمام عينيه ـــ عجوز بكر هيفاء نحيلة . لها شعر أشعث ، أسود فاحم ، وعينان دعجاوان شاردتان ذاهلتان . كان يقول عنها أهل القرية إنها قد أصابها الخبل من حادث غرامى لم توفق فيه . . . هو يتذكر كيف كانت تحفظ جيداً بعض أساطير فرنسية جريا على عادة كانت فى ذلك الحين متبعة فى مدرسة ليلية من طراز قديم ، وكيف كانت تكررها مرة بعد أخرى . ويذكر أيضا كيف كانت تضرب على البيان لحن (بولونى أو كينيسكى) . لقد كانت تلك الاغنية تبدو مخيفة غريبة ، لأن السيدة العجوز كانت تغنيها من غير عاطفة ولا شعور

أوه ـــ تلك الاغنيـة (بولونى أو كينيسكى) . . . (هى) المعهودة أيضا كانت تحسن غناءها وعزفها على البيان .

والآن اخـــذت النجوم فى السماء تبعث بصيصاً ضئيلا من نور خافت وتتلألأ تلألؤاً سحريا لا تدركه الافهام . وطفقت الجنادب تسبح بصريرها تسبيحتها الواهنـــة الوانية ، لاتلبث تفتر حتى تهتاج من جديد فى هدوء المساء وسكون الطبيعة . . . هناك بيان عتيق . هنالك فى تلك الغرفة الداخلية . النوافذ مفتوحة لو أن (هى) المعهودة تدخل الآن فى الغرفة ، خفيفة الظل كالطيف وتعزف عليها ، تمس مفاتيحها العتيقة المغبرة . . . ومن ثم يذهبان معا الى هناك . . . الى هناك باستقامة واحدة . . . يمران من تلك الطريق الضيقة بين الجويدار الكثيف . الى أين . . . الى بعيد ، حيث الضوء ينبعث فى الافق الغربى .

كبح الكابتن إيفانيش جماح افكاره وابتسم قائلا بصوت مرتفع (لقد ذهب الخيال معى الى بعيد . . .)

كانت الجنادب تصدح بانشودتها فى نسيم المساء الهادىء الليل ومن البستان يعبق شذا الارقطيون المحمل بالطل . وأريج زهرة الفجر ورائحة القراص المخضل المنعشة ، فتختلط كل هذه الارواح العطرة فى الفضاء وتتجه شطر الانوف كأنما تنوى نية أو تبغى بغية . . . هذه العطور الزكية ذكرته بمساء كان قد رجع فيه من المدينة فى ساعة متأخرة ؛ وكيف ظل يفكر (عنها) يخدع نفسه ويمنيها بآمال السعادة والهناء . . .

ما كنت ترى فى القرية نافذة تشع ، ساعة ساق عربته الى اعالى الرابية . كل شيء تحت تلك القبة السماوية الصاحية السلسبيل الزاخرة بالكواكب كان غارقا فى سبات عميق . . . ليالى أبريل مظلمة دافئة

من البستان كانت تفوح رائحة الكرز المزهر . والضفادع تنق وسنانة فى البرك — فتبعث بموسيقى ضعيفة هزيلة من النوع الذى يسمع عادة فى آخر هزيع من ليالى الربيع عندما يدنو الصباح . ظل زمنا طويلا قبل أن يعقد أجفانه الكرى واستلقى فى نومة عميقة فوق الحلفاء فى الكوخ بالبستان . قد لبث ساعات يمشى الهوينى على سراب جار تحول من بعـــد إلى سحابة بيضاء شفافة متألقة من الاحلام البعيدة النائية . ولكن هناك جاءت من بركة ليست فى الحسبان بعد حين صيحة لمالك الحزين — كأنها لغز أو سحر . والظلام الحالك — الظلام الذى ضرب بجرانه فى طرقات البستان الضيقة هو أيضا بدا كاللغز أو كالسحر . وبعد ذلك . . . قبيل الفجر فتح عينيه واستنشق ملء رئتيه نسمات البستان الندية الباردة المحملة بالعطر . ومن خلال الكوة المفتوحة قليلا أطلت عليه نجوم الصباح اللامعة مضطربة قلقة .

استفاق الكابتن ايفانيش من هواجسه واستوى قائما . وراح يطوف انحاء الدار ترجع الجـــدران اصداء خطواته ، وينحنى بلاط الغرف هنا وهناك تحت قدميه مرسلا صوتا متزنا كأنما هو يئن من وطئهما أنين الألم .

« ثمانون عاما عمر هذه الدار » قال فى نفسه : « لأستدعين الفعلة فى الخريف . سيكون البرد فيها فى الشتاء المقبل قارسا لايطاق »

وفيما كان يتمشى جيئة وذهابا كان يشعر أنه أضحى الآن أعجف سمجا — هو طويل نحيل محنى بعض الشىء . ظل كذلك يجىء ويغـــدو ثم رفع حاجبيه وهز رأسه وغنى الغناء (البولونى) . أحس أنه يرقب خطواته الخاصة — ينظر الى نفسه — فقدم نفسه الى نفسه على أنها رجل آخر يهيم وحده فى ارجاء الدار — رجل حزين قد أمضه الحزن وأرمضت قلبه الكلوم . حمل كنانته وخرج من الدار .

كان الضوء خارج الدار اكثر منه داخلها ، ولا يزال ضوء الغروب الشاحب الذى توارى خلف القرية يرسل على مزارعها بصيصا ضئيلا باهتا . وبخطوات ثقيلة مرتبكة جاز رقعة من الارض مفروشة بفراش من القراص انتهى منها الى راية وقف عندها . وبعد أن أشعل غليونه جلس على صخرة هناك .

ثم قال فى نفسه « أراني جالسا كاليوم على سفح الجبل » وسيقول الفلاحون عنى هناك . . . إن الشيخ لاعمل له . . . نعم لقد امسيت عجوزا « ألم تبت (انا) . . . حتى لكأنها لم تكن » . اين ذهب كل ذلك . . . كل ذلك الماضى

كم ظل محدقا ببصره فى الحقول النائية — كم ظل مصيخا بسمعه الى هجعة الطبيعة وسكنة المساء . . .

قال بصوت مرتفع (كيف يمكن ذلك ؟ !) كل شىء سيبقى على حاله . الشمس تشرق . الفلاحون يخرجون الى الحقول حاملين على اكتافهم محاريثهم عاليها سافلها ، وسوف لا أرى من ذلك شيئا — وليس هذا الحسب ، بل ولن اكون فى هذا المكان ابدا . ولو مرت الوف السنين ، لن اعود الى الدنيا مرة أخرى — لن اجلس جلستى هذه على هذه الرابية . .

لبث زمنا طويلا جالسا جلسته تلك ، مطرقا يسحب شاربيه الاشيبين ويعبث بشعراتهما .

ترى كم من السنين كان الرجل الذى امامه الآن شيئا خطيرا — بارزا . . . لقد كان ذات مرة صبيا صغيرا — وكان شابا يافعا — ثم هو فى يوم قائظ لافح من ايام الصيف قصد بعربته الصغيرة الى الانتخابات . . . مارا من طريق عريض رحب . ما اعرض ذلك الطريق ! . .

ابتسم الكابتن ايفانيش الى نفسه من افكاره التى تتواثب من شىء الى آخر .

لكن ذلك كله كان منذ زمن بعيد . . . معنى فى البعد . . كذلك . اواه ! ماذا يرى الآن امامه ! يالهول مايرى ! قد بلغ زمنا هو كما يقول الناس يصل فيه كل شىء نهايته ، سبعون ، ثمانون عاما لايقدر الانسان ان يعمر اكثر من هذا . ما هى الحياة البشرية — طويلة كانت أم قصيرة .

قال فى نفسه : (ان حياتى طويلة ! طويلة على كل حال)

هناك فى ظلة السماء أضاءت نجمة وخرت الى الارض . رفع عينيه الحزينتين الكليلتين ، وظل يحدق فى السماء . وفيما هو يرسل بنظراته فى اعماق تلك اللا نهاية المظلمة الهادئة الزاخرة بالكواكب تنهد الصعداء وشعر بالحزن يذهب عن نفسه . لقد عاش هادئا مطمئنا ، وسيموت هادئا مطمئنا . كالورقة فى تلك الايكة تجف وتسقط متى يحين أوانها ، إيه . لكل اجل كتاب .

لاتكاد الحقول المترامية ترى الآن فى ظلة الليل الحالكة . اشتدت الظلمة وزاد لألاء النجوم . وبين الفينة والفينة تسمع صيحات السمانى . واخذت تنبعث من العشب الندى رائحة منعشة . استنشق الهواء بخفة ، وبسهولة ملأ رئتيه . ما أشـــد اتصاله بهذه الطبيعة الساكنة الهادئة !

بغداد ترجمة ع. الحمدى